التاريخ فى سير أبطاله

مازيني

[رسول الحرية إلى قومه ، المجاهد الذى أبلى فى جهاده مثل بلاء الأنبياء]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٥ —

هكذا كانت حياة مازيني فى لندن منذ رحل إليها عام ١٨٣٧ حياة شقاء لم يكن يقوى على احتماله إلا من كان له مثل إيمانه ، وظلت هذه حاله مدة أربع سنوات طويلة ؛ وفى عام ١٨٤١ لانت الأقدار له بعض اللين ، إذ أخذت يد الصداقة تخفف عنه بعض آلام الغربة والوحدة ، وكان أكثر أصدقائه الجدد من الإنجليز ، وقد حلوا فى قلبه محل أصدقائه الأقدمين الذين نسوه وإن لم ينسهم والذين تركوه فى غربته ، وإنه ليغترب من أجل قضيتهم ويعانى من الآلام ما يعانى فى سبيل تحريرهم .

وأعجب مازيني بأصدقائه الإنجليز وأعجبوا به ، وكان يرى فى صداقة هؤلاء القوم له ما يزيده تعلقاً بهم ؛ فهو يحب إخلاصهم وصراحتهم ورقة آدابهم وظرف أحاديثهم ؛ وود مازيني لو كان لديه من المال ما يكفى لأن يشترى الملابس التى تليق به ويدفع منه أجر تنقله من جهة إلى جهة ليتسنى له أن يكثر من الأصدقاء فى هذا البلد العظيم ، وكم آلمه وأحزنه فقره فى هذه الغربة الطويلة

وكان ممن اتصلت بينه وبينهم أسباب المودة والحب الفيلسوف الإنجليزى الشهير كارليل ، فلقد أعجب كارليل بما انجلى لعينه البصيرة من معانى العظمة فى نفس هذا المجاهد الغريب ، وكانت قد ترامت إليه من قبل أنباء حركاته فى سبيل بلاده ؛ وكذلك كانت تربط قلبيهما دعوة كليهما إلى العناية بالجانب الروحى من حياة الإنسان ومحاربة النفعية والأنانية ، ثم ذلك الحماس الذى كان يبث الحرارة والحيوية فى كل ما يكتبان .

وكثيراً ما كان مازيني يزور صاحبه فى منزله ، وقد اتصلت أسباب المودة كذلك بينه وبين زوج الفيلسوف الكبير ، وأعجبت بخلاله وأكبرت مبادئه ، حتى لقد كانت تجادل زوجها غالباً وتأخذ جانب مازيني فيما كان ينشأ بينهما من خلاف فى الرأى ، فإن الأمر لم يخل من خلاف بينهما ، إذ كان كارليل يرى أن مبادئ مازيني غير ممكنة فى هذا الوجود ، الأمر الذى كان يغضب له الزعيم أكبر الغضب فيؤدى إلى احتدام الجدال بينه وبين صاحبه .

وكان عليه من أول الأمر أن يعمل ليكسب قوته ، ولم يكن أمامه إلا الكتابة ، فراح يكتب على الرغم مما كان يحسه من كآبة وهم ، وكان مما يضايقه أشد الضيق أن يرى نفسه مقيداً فى اختيار موضوعاته بما يلائم الذوق الإنجليزى ، وإلا ردها إليه أصحاب الصحف معتذرين من نشرها ؛ فكان لذلك كثيراً ما يتناول من الموضوعات ما لا يحس فى تناوله بما ينبغى من الارتياح واللذة ، وقد كانت أكثر كتاباته فى الأدب ، فجال فى ميدانه جولات موفقة ، وتوثقت الصلة بينه وبين كثير من نابهى الكتاب من الإنجليز ، وعرف فيمن عرف من كتاب فرنسا يومئذ لامنيه ، والكاتبة الفرنسية الشهيرة التى اتخذت لقلمها اسم « جورج ساند » ؛ فتبودلت الرسائل بينه وبينهما . وصار لمازيني فى الواقع شخصيتان ، فهو الزعيم السياسى الذى تعرفه الجمعيات السرية ، وهو الأديب الكاتب الذى يذيع اسمه فى الأوساط الأدبية .

ورأى الزعيم أن الأدب قد يصرفه عن السياسة كما أوشك أن يفعل ذلك من قبل فى مستهل حياته العامة ، فمال إلى السياسة وراح من جديد يوليها من عنايته إلى جانب الأدب ؛ وقد عز عليه أن تموت جمعيته إيطاليا الفتاة . فأخذ يزيح الرماد عن هذه الجمرة لتظهر من جديد متوقدة مستعرة ؛ فأكب على مراسلة أعضائها فى إيطاليا وخارج إيطاليا . وشد ما كان يزعجه ويؤلمه ألا تقابل حماسته إلا بالفتور ، وكان يعظم حزنه كلما آنس ذلك الفتور فيمن كانوا بالأمس يتحمسون أشد التحمس للجمعية ومبادئها ، ترى ذلك فى مثل قوله : « إنى لأحس بالخجل حينما أكتب من أجل إيطاليا كما لو كنت ألجأ إلى الكذب » .

وكان يخاف أن يموت دون أن يتم ما بدأه ، كما كان يعتقد

أن التراخي في الجهاد تفريط في كرامة الشهداء الذين جادوا بأنفسهم في سبيل وطنهم، وتفريط في حق الوطن الذي يتطلب من بنيه أن يموتوا كما مات غيرهم أو يهبوه الحرية والاستقلال. وكان يسأل نفسه ماذا عسى أن يصنع وحده وقد تخاذل الرجال وهانت الحرية على كثير من طلابها بالأمس؟ ولكن مثله لم يخلق له اليأس. ومتى كان اليأس من خلال الزعماء وهم الذين يبددون بإيمانهم ظلماته؟ وهل صرفه ما ألح عليه من المحن والشدائد عن وجهته؟ أم أن الشدائد قد زادته صلابة ويقيناً وإن كان جسمه يشكو من التعب وسوء الغذاء وغيرهما مما يكون نتيجة للعسر المالي؟

الحق أنه كان يزداد إيماناً فوق إيمانه كلما تصرمت الأيام. ولقد كان على بينة من أن جهاده لن يذهب سدى، وأن هذه البذور التي يذرها فسقتها دماء الأحرار لا بد أن تنمو وتؤتي أكلها، وأن تلك الجمرة التي يخفيها الرماد لا بد أن يتطاير الرماد من فوقها إذا نفخ فيها الشباب من روحهم فتعود كما كانت وهاجة مستمرة ولا تقوى بعد على إطفائها الأيام. ولئن تخاذل الرجال عن دعوته فذلك لأنهم فقدوا الثقة في الثورات وفي الحرب المهجية، أما مبادئ الوطنية والحرية فقد تغلغلت في النفوس واستقرت في أعماقها، ولسوف تكون هذه المبادئ في غد أكبر حافز لأبناء إيطاليا أن يقدموا أرواحهم رخيصة في سبيل وطنهم يوم يسيرون في حروبهم النظامية ليضربوا عدوهم الكبرى، ألا وهي النمسا. ولئن تمت وحدة إيطاليا في غد بفضل مساعي كافور وبطولة غاريبلدي والبواسل الأشداء من رجاله، فإن التاريخ لن يستطيع أن ينكر أن دعوة مازيني كانت الروح المحركة في جميع هاتيك الخطوات، فهو الذي أعد الرجال وإن كان غيره ساقهم جنداً؛ وهو الذي حشد من الأبطال ما لن يستطيع غيره أن يحصيهم عدداً؛ وفضلاً عن ذلك ففي حجر جميته ولد كافور وغاريبلدي فكان أحدهما رأس الحركة الوطنية وكان الآخر ساعدها

دأب مازيني في غربته على العمل من أجل قضيته الكبرى؛ وما كانت الكتابة يومئذ إلا وسيلة لكسب قوته؛ ولئن لم يستطع أن يتصل بمواطنيه في إيطاليا إلا في مشقة شاقة، فقد أخذ يتصل بالإيطاليين في انجلترة عامة وفي لندن خاصة ونشط في بث دعوته في قلوبهم؛ وكان يعنى أكبر العناية بأن يقبل العمال على دعوته لأنه كان يقدر القوة التي يمكن أن تنبعث من صفوف هذه الطائفة

ولم يحل الفقر بين هذا الرجل العظيم وأبناء وطنه في انجلترة، فانظر إليه على ما كان به من الفاقة كيف يفتتح مدرسة ليلية لتعليم أبناء إيطاليا الغرباء وتثقيف عقولهم حتى ينفذ إليها النور الذي يسعى به فيكونوا عوناً لبلادهم إذا رجعوا إليها ويكونوا عدتها غداً في كفاحها؛ ولك أن تتصور مبلغ ما عانى في سبيل جمع المال للإنفاق على هذه المدرسة، وهو الذي فدحه الدين وتركته العاقة رث الملابس مضعوف الجسم؟ ولكن المدرسة قد نجحت على الرغم من ذلك، وازداد مازيني بها قدراً في أعين الإنجليز وهم الذين يقدرون مثل هذه الأعمال حق قدرها؛ وزاد نجاحها على نجاح المدارس فبثت الروح الوطنية في قلوب أبنائها، وبثت فيها غير الوطنية عرفان الجميل وشكر المحسنين، فهذا غلام يعود إلى موطنه فيأبى عليه شعوره النبيل إلا أن يسافر إلى جنوة ليحدث أم الزعيم عن ابنها العظيم ويعبر لها عن امتنانه وحفظه صنيع ذلك الرجل الذي علمه وملأ قلبه حماسة وإخلاصاً

ونشر مازيني صحيفة للعمال يحدثهم فيها عن حقوقهم وواجباتهم ويرفع بها مستوى مداركهم لأن العلم عنده من أكبر أسلحة الوطنية، ولقد كان لهذه الصحيفة في صفوفهم أثر بالغ وإن لم يكن يستطيع أن يديمها فيهم إلا في فترات متقطعة لحاجته إلى المال؛ وكثيراً ما كان يهرب العمال أعداداً منها إلى إيطاليا فيكون لها في قلوب العمال هناك أكثر مما قدر لها من التأثير إذ كان يحس قراؤها أن هذا الكلام كلام زعيم إيطاليا، وأنه فوق ذلك منبعث إليهم من المنفى ... وكان الزعيم لا يفتأ يحدثهم عما يعانون من البؤس ويلاقون من الإهمال ويبين لهم أسباب ذلك، ويبشرهم بمستقبل سعيد تسود فيه الحرية وتقرر فيه حقوق الأفراد فينالون حظهم من التعليم والرق والرخاء

إتكأ مازيني على نفسه على الرغم من ضنى جسمه وقصر ذات يده؛ وكلما اشتد الموقف عليه لاذ بالأمل فبدد أمله أشباح اليأس. ولئن كبر على نفسه أن تضعف «إيطاليا الفتاة» فلقد كان عزاؤه فيما بثته مبادئها في قلوب الشباب والشيوخ من الحماسة والعزم؛ فكان العمال يتلقفون صحيفته الخاصة بهم على الرغم من يقظة الرقيب

والبوليس ، وكان شباب الجامعات يتهافتون على كتاباته ويتلونها كما يتلون الإنجيل فلها فى أنفسهم مثل جلال الإنجيل ومثل سحر الإنجيل

وكانت النمسا تضيق بهذا أشد الضيق ، كما كان يضيق به أنصار الرجعية فى القارة كلها. وأصبح اسم مازينى يقض مضاجعهم ويتذرهم بالويل فى المستقبل القريب . وكان مما تطيب له نفس ذلك الغريب المجاهد ، أن يصبح وهو فرد مبعث حرب هؤلاء الجبابرة الحاكمين .

وترامت إلى مازينى فى انجلترة نبأ دعوة جديدة أخذت تتسرب إلى أذهان الإيطاليين ، وهى دعوة الاعتدال ، ومؤداها الاقتصار فى ذلك الوقت على المطالبة بالإصلاح الداخلى ، حتى تتهيأ البلاد للاستقلال ، فتكون وثبتها فى غد وثبة قوية لا تخاذل بعدها . وكان أصحاب هذه الدعوة يتطلعون إلى ملك بيدمنت ليكون عوناً لهم فى تحقيق آمالهم فى الإصلاح... وغضب مازينى من هذه الدعوة وضاق بها صدره ، إذ كان يرى النمسا أساس كل فساد . وكيف يتسنى للبلاد أى صلاح وسلطانها مفروض على الأمراء ونفوذها متغلغل حتى الأعماق ؟ إنه يرى أن سياسة المعتدلين قلب للوضع المعقول ؛ فالوطنية هى الخطوة الأولى والثورة تأتى بعدها ، ومن وراء الثورات المتلاحقة يأتى الغلب فى النهاية ، ويكون بعد الغلب الإصلاح كأسرع وأكمل ما يكون الإصلاح !

وإنه ليخشى أن يركن الناس إلى هذه الدعوة فتموت روح الوطنية فى نفوسهم ويستطيع بعد ذلك المستبدون بهم أن يلهوهم عن غايتهم الكبرى ببعض مظاهر الرخاء المادى حتى تنحل عزائمهم وينسوا القبلة التى كانوا يتجهون إليها ، وتضرم مطامع الدنيا فيصبح بعضهم لبعض عدواً ، وقد كانوا بالوطنية والجهاد فى سبيل قضيتهم المشتركة بعضهم أولياء بعض .

وأمض نفس الزعيم النازح أن يسفه بعض دعاة الاعتدال آراءه ، وأن يهاجموا حركاته أقسى مهاجمة ، فيتهموه بأنه يلقى بالشباب بين براثن الموت وهو بعيد ، كل أولئك فى غير جدوى ، مرة بعد مرة ... وأثارت هذه التهمة نفسه حتى لقد فكر أن يذهب إلى إيطاليا على الرغم من الحكم عليه بالإعدام ، فيضحى نفسه فى سبيل قضيته. فللموت أمن على نفسه من هذه التهمة، ولولا أن صدفه عن ذلك بعض أصدقائه لأقدم عليه فى غير تردد . وكأنما أراد الغريب المناضل أن يرد عليهم بالعمل خيراً من القول ، فأخذ يدبر ثورة جديدة يذيعها فى طول إيطاليا وعرضها يكون مركزها هذه المرة الولايات البابوية ، إذ كان قد علم أن وسط إيطاليا كان يزخر يومئذ بالمؤامرات السرية ، وكان ذلك فى عام ١٨٤٣

واتصل مازينى بنبيلين ضابطين فى بحرية النمسا ، وهما أتيليو وإميليو من أهل البندقية ، وأوعز إليهما أن يوقدا نار الثورة فى وسط إيطاليا — ولكن البوليس — ألقى القبض عليهما بعد أن وثق من حركاتهما ومراميهما ، فسيقا إلى الإعدام ، وزادت دماؤهما الزكية شجرة الحرية نماء وقوة . وعلم مازينى أن الحكومة الإنجليزية هى التى دلت عليهما ، لأنها كانت تفتح رسائله إليهما ورسائلهما إليه ، فاستشاط الزعيم غضباً ، وأطلع أحد النواب فى مجلس العموم ، وكان من أصدقائه الأدنين على الأمر ، فاحتج النائب فى المجلس على مسلك الحكومة الإنجليزية ؛ وسرعان ما شاع فى المجتمع الإنجليزى شعور الخجل مما فعلت الحكومة ، حتى لقد حار وزير الداخلية ماذا يدافع به عن نفسه أمام المجلس حين وقف يرد على تساؤل بعض النواب ، وكان بينهم ما كولى الكاتب الإنجليزى العظيم . . . وكتب كارليل فى جريدة التيمس يسفه عمل الحكومة فكان مما قاله : « إن فتح الرسائل المغلقة مسألة جد خطيرة بالنسبة إلينا ، لأن هذه الرسائل كما كنا نظن تحترم فى مصلحة بريد انجليزية كما تحترم الأشياء المقدسة . إن فتح الرسائل المغلقة على غير علم من أصحابها عمل قريب جداً من سرقة جيوب الناس » .

ودافع كارليل عن صديقه مازينى فى تلك الجريدة . فكان مما ذكره عنه : « مهما يكن من رأيى فى نظرات هذا الرجل العملية وفى خبرته بشؤون الدنيا ، فإنى أستطيع فى غير تحرج أن أشهد أمام الناس جميعاً أن هذا الرجل — إن كنت قد عرفت شيئاً له — رجل عبقرية وفضيلة ، رجل شجاعة صحيحة ورجل إنسانية ؛ وهو كذلك نبيل الفكر ، فهو أحد هؤلاء النوادر الذين ترى عددهم فى هذه الحياة وأسماءه قليلاً ، أولئك الجديرون بأن نسميهم الأرواح الشهيدة ؛ أولئك الذين يسيرون على التقوى فى حياتهم اليومية ، والذين يدركون فى صمتهم ، ويسلكون فى الحياة مسلكا يتفق مع ما يفهم من ذلك » .

« يتبع »

العفيف